

الأستاذ الدكتور: عمار ساسي

مدير مخبر الصوتيات

العربية

جامعة سعد دحلب - البليدة

نظرية الأستاذ جعفر دك الباب اللغوية العامة

حول نشأة الإنسان واللغة الإنسانية

1 - في المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية

يقول دك الباب بتميز اتجاه أبي علي الفارسي وتلاميذه في تاريخ الدراسات اللغوية العربية القديمة. وقد انفرد دك الباب من بين الباحثين العرب المعاصرين بإطلاق تسمية (مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية) على هذا الاتجاه. رأس هذه المدرسة أبو علي الفارسي، ومن أعلامها ابن جني وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري والسكاكي.

التزمت مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية منهجاً بدأه أبو علي في الدراسة الموضوعية لكل مسألة من مسائل الخلاف النحوي على حدة وإبداء الرأي فيها. لذا وسم دك الباب منهج هذه المدرسة بأنه علمي. وتبنى ابن جني منهج أستاذه العلمي وعمقه في بحث الأصول العامة للنحو، ونشأة اللغات، وأصوات العربية، وعلاقة معاني الكلم في العربية بأصواتها. ثم سار عبد القاهر الجرجاني وفق المنهج العلمي لأبي علي وعمقه بتأكيد الوظيفة الإبلابية التي تؤديها اللغة. وتابع الزمخشري السير وفق المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية في صيغته الجرجانية. ثم تبنى السكاكي هذا المنهج العلمي في صيغته الجرجانية وطوره بكشف خصائص النظام اللغوي للعربية في مستوياته المتدرجة: الأصوات، والكلمات المفردة، والتراكيب من حيث علاقاتها النحوية ثم من حيث علاقاتها السياقية والمقامية.

2 - في النظام اللغوي:

بالاستناد إلى المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية في صيغته المتطورة السكاكية، بلور دك الباب مفهومه للنظام اللغوي الذي يشتمل على ثلاثة مستويات متدرجة:

1. المستوى الصوتي: الذي لا يوجد إلا مجسداً في البنية الصوتية للمفردات. ويرتبط

به نظام الكتابة الذي هو وسيلة لتسجيل المستوى الصوتي.

2. المستوى الإفرادي للكلمات (مستوى الكلمات المفردة). للكلمة فيه جانبان متلازمان:

أ) البنية الصوتية للكلمة.

ب) البنية الدلالية للكلمة.

3. المستوى التركيبي للكلمات (التركييب). والتركييب نوعان:

أ - تراكييب غير إسنادية.

ب- تراكييب إسنادية (جمل). وللجمل جانبان متلازمان:

1. المبنى الذي يتمثل في مستوى البنية الصوتية للجمل.

2. المعنى الذي يتمثل في مستوى البنية المعنوية للجمل.

يتجلى مستوى البنية الصوتية للجمل في ظاهرتين:

أ. ترتيب تسلسل الكلمات في الجمل.

ب. التنعيم، وهو وسيلة لتمييز الأنواع المختلفة للجمل (الخبرية

والاستفهامية والطلبية)

ويميز في البنية المعنوية للجمل مجالان متلازمان للدراسة:

أ. الدراسة المنطقية للجمل: ويشترط في هذا المجال من الدراسة توافر

الإسناد المنطقي بين العنصرين المكونين للجمل (المسند والمسند

إليه).

ب. الدراسة الإبلابية للجمل: ويشترط في هذا المجال من الدراسة توافر

الإفادة بالنسبة إلى السامع.

واستناداً إلى هذا المفهوم للنظام اللغوي، يقول ذلك الباب بعدم فصل دراسة المستويات

المتدرجة للنظام اللغوي بعضها عن بعض. لذا يرفض ذلك الباب فصل دراسة علم المعاني (وهو

أحد علوم البلاغة الثلاثة) عن دراسة علم النحو بمفهومه الواسع (صرف العربية ونحوها).

ويدعو إلى توحيدها معاً في علم واحد يسميه (علم قواعد اللغة العربية) يشتمل على تمهيد في

أصوات العربية والكتابة العربية.

3 - في المنهج الوصفي الوظيفي في الدراسة اللغوية:

ينطلق المنهج الوصفي الوظيفي في الدراسة اللغوية الذي يتبناه ذلك الباب من أسس

المنهج العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية المبلورة في ضوء اللسانيات الحديثة. والمنهج

الوصفي الوظيفي عند ذلك الباب منهج وصفي (لأنه يصف البنية اللغوية) وهو منهج وظيفي

(لأنه يبين الوظيفة الإبلابية التي تؤديها البنية اللغوية). وتتلخص مبادئه في النقاط التالية:

(1) اللغة والتفكير يشكلان وحدة لا انفصام لها. ويتجلى ذلك في تلازم اللفظ والمعنى.

(2) العلاقة بين اللفظ (الدال) والمعنى (المدلول) في مستوى الكلمة المفردة علاقة جدلية

يكونان فيها وحدة لا انفصال لها.

(3) العلاقة بين اللفظ والمعنى في مستوى الجملة تظهر من خلال جانبيين متلازمين للجملة هما:

أ. المبنى الذي يتمثل في البنية الصوتية للجملة.

ب. المعنى الذي يتمثل في البنية المعنوية للجملة.

وتجدر الإشارة إلى أن المنهج الوصفي الوظيفي منهج تزامني (سنكروني) في الدراسة اللغوية. ويرى دك الباب أن علماء العربية الأوائل تمكنوا بفضل استخدام المنهج الوصفي الوظيفي من الكشف الصحيح عن الخصائص البنيوية المميزة للنظام اللغوي للعربية، ووضعوا قواعد النحو والصرف العلمية الدقيقة الملائمة لهذه الخصائص البنيوية للعربية. ويشير دك الباب إلى أن علماء العربية حاولوا بعد ذلك تقديم تفسيرات لأسباب تمتع العربية بخصائصها البنيوية المميزة عن طريق بحثهم فيما سموه (الأصل والفرع). ولم يأخذوا بالحسبان عامل الأسبقية في الزمان، لأن منهجهم الوصفي الوظيفي يعتمد الاستنتاج المنطقي في تحديد الأصل والفرع خارج محور الزمان. فاعتمد علماء العربية في تحديد الأصل والفرع (مبدأ التجرد والزيادة) في البنية الدلالية للكلمة أو في بنيتها الصرفية. وبهذا الصدد يؤكد دك الباب أن علماء العربية لم يعتمدوا منهجاً تاريخياً يحدد الأسبقية على محور الزمان لدى البحث في الأصل والفرع. ويرى أن تحديد الأصل والفرع لا يمكن أن يتم البحث فيه خارج محور الزمان، لأن الأصل بالضرورة هو الأسبق في الزمان والفرع هو التالي له في الزمان. لذا لا بد لتحديد الأصل والفرع من استخدام منهج تعاقبي (دياكروني) تاريخي في الدراسة اللغوية.

4 - في المنهج التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية

من أجل الكشف عن أسباب تمتع العربية بخصائصها البنيوية المميزة عن طريق تحديد الأصل والفرع على محور الزمان، طرح دك الباب منهجاً تاريخياً علمياً في الدراسة اللغوية استنبطه من التنازع بين نظريتي ابن جني (في الخصائص) وعبد القاهر الجرجاني (في دلائل الإعجاز).

يقوم منهج دك الباب التاريخي العلمي على المبادئ التالية:

1. اعتماد المنطلق الصوتي أساساً في الدراسة اللغوية، لأن اللغة الإنسانية كانت منطوقة في بداية نشأتها.

2. التلازم بين النطق والتفكير ووظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة الكلام الإنساني.

3. لم ينشأ التفكير الإنساني مكتملاً طفرة واحدة. وانطلق خط السير العام لتطوره

من إدراك الشخص المحسوس واكتمل بالانتقال إلى المجرد. كما أن النظام اللغوي لم ينشأ مكتملاً طفرة واحدة، بل نشأ واكتمل تدريجياً بشكل مواز لنشأة التفكير الإنساني واكتماله. لذا يبين المنهج التاريخي العلمي مراحل اكتمال النظام اللغوي وقوانين التطور اللغوي. ويستوجب القول بإنكار ظاهرة الترادف في اللغات الإنسانية.

4. يؤلف النظام اللغوي كلاً واحداً، توجد المستويات المتدرجة للبنية اللغوية فيه في علاقة تأثير متبادل فيما بينها. ويحتل مستوى البنية الصوتية مرتبة الأساس والموجه لبقية المستويات.

5 - كيف وصل ذلك الباب إلى البحث في نشأة اللغة الإنسانية ؟

استخدم ذلك الباب منذ عام 1968 المنهج الوصفي الوظيفي في دراسته المقارنة للجملة في اللغتين العربية والروسية¹. وقد ساعده هذا المنهج في فهم أصالة اللسان العربي التي تشير إليها الخصائص البنيوية للعربية. ويرى ذلك الباب أن وصف لسان ما بالأصالة يقصد به أنه يتوافر فيه عنصران هما: الإيغال في القدم من ناحية، والاستمرار في الحياة من ناحية أخرى. وعليه فإن بنية اللسان الأصل يجب أن تتمتع بجملة خصائص من حيث الأصوات والمفردات والصرف والنحو تشير إلى إيغاله في القدم. وأول قرينة على ذلك وجود شبه بين ألفاظه وأصوات الحيوان وظواهر الطبيعة، لأن هذا الشبه يدل على محاكاة الإنسان القديم لأصوات الحيوان وظواهر الطبيعة، ويؤكد بالتالي بدائية نشأة ذلك اللسان.

يشير ذلك الباب إلى أن دراسة البنية الصوتية لمعجم مفردات العربية تكشف وجود شبه واضح بين كثير من ألفاظ العربية وأصوات الحيوان وظواهر الطبيعة، مما يؤكد بدائية نشأة اللسان العربي. ويتساءل ذلك الباب: هل ترتبط بدائية نشأة اللسان العربي ببداية نشأة اللغة الإنسانية وتشكل الكلام الإنساني ؟! ويجب: إنه ليس صعب نظرياً تصور استمرار وجود لغة طبيعية حتى الوقت الراهن تحمل مادتها عناصر تتوافر فيها السمات الصوتية للأصل الأول في نشأة الكلام الإنساني، ويمكن أن تقدم نموذجاً لبداية تشكل الكلام الإنساني. إلا أنه لا يوجد ثمة ما يمنع من حيث المبدأ من دراسة مادة لغوية للغة طبيعية لبيان ما إذا كانت تقدم نموذجاً لبداية نشأة اللغة الإنسانية. وبهذا الصدد يقول ذلك الباب إن أول ما يعترضنا هنا السؤال التالي: هل تدخل مسألة بداية نشأة اللغة الإنسانية وتشكل الكلام الإنساني من حيث المبدأ في الموضوعات التي يدرسها علم اللغة ؟ ويجب: إنها تدخل شريطة ألا تستهدف الخوض في الجانب الفلسفي

¹ في رسالة الدكتوراه التي بدأ بإعدادها عام 1968 في جامعة موسكو في اختصاص اللسانيات التاريخية والمقارنة وأنجزها بالروسية وناقشها بامتياز عام 1973. وعنوان الرسالة "مبادئ الدراسة المقارنة لترتيب الكلمات في الجملة في اللغة العربية الفصحى واللغة الروسية الأدبية المعاصرة".

من المسألة (هل اللغة إلهام من الله أو تواضع فيما بين الناس ؟) بل تستهدف اكتشاف القوانين الصوتية التي خضعت لها اللغة الإنسانية منذ بداية نشأتها.

وبما أن النظام اللغوي يتألف من جانبين: صوتي (مادي) ودلالي (معنوي)، فمن الطبيعي أن ينطلق البحث في بداية نشأة اللغة الإنسانية من تحليل الجانب المادي (الصوتي) للغة، لينفذ من خلاله إلى تحليل الجانب الدلالي. وهكذا يرى دك الباب أن البحث في مسألة بداية نشأة اللغة الإنسانية يحيل بالضرورة إلى البحث في الجانب المادي (الصوتي) للغة، ويجب أن يستهدف الإجابة عن السؤال: كيف نشأت العلاقة الذهنية بين مجموعة الأصوات التي تتألف منها ألفاظ اللغة ودلالات تلك الألفاظ ؟ للإجابة عن هذا السؤال، قدم دك الباب نظريته حول نشأة الإنسان واللغة الإنسانية، مستخدماً منهجه التاريخي العلمي في الدراسة اللغوية.

6 - الأصل في المعجم والأصل في الاشتقاق القواعدي

باعتداد المنهج التاريخي العلمي يميز دك الباب الأصل في المعجم اللغوي الإنساني عن الأصل في الاشتقاق في النظام اللغوي الإنساني. فيرى أن الأصل في المعجم اللغوي رصيد للأصوات الصامتة التي تتألف منها مفردات اللغة من ناحية، وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية أخرى. أما الأصل في الاشتقاق في النظام اللغوي (القواعدي: الصرفي والنحوي) في اللغات الطبيعية جميعها، فهو الصيغة اللغوية الحقيقية الأولى في بداية التخاطب الإنساني اللساني. وقد ولد تطورها النظام اللغوي في مستوياته المتدرجة جميعها، وحدد خصائصه بدءاً من خصائص النظام الصوتي. وخضع هذا التطور لقانون صوتي عام نجم عنه تبلور الصوامت والصوائت في اللغات الإنسانية المختلفة. وأدى التطور الصوتي إلى توسع اللغة الإنسانية في أداء وظيفة الإبلاغ (الاتصال) حتى صارت اللغة نظاماً كاملاً للإبلاغ من ناحية، كما أدى إلى توسع اللغة في التعبير عن التفكير حتى أضحت اللغة نظاماً كاملاً للتعبير عن التفكير المنطقي من ناحية أخرى.

هذا ويؤكد دك الباب أنه لدى دراسة النظام اللغوي يجب أن نهتم بما هو عام ومطرود دون أن نهمل الاستثناءات (الشواذ)، لأنها تعتبر شواهد على مراحل سابقة أو بدايات لتطور جديد. وبذا نتمكن من ربط دراسة النظام اللغوي في وضعه الراهن (حسب المنهج الوصفي السنكروني) بدراسته في تطوره التاريخي (حسب المنهج التاريخي الدياكروني).

يرى دك الباب أن الصيغة اللغوية الحقيقية الأولى، التي استخدمت في بداية التخاطب الإنساني اللساني، كانت تتوافر فيها بالضرورة الشروط الأربعة التالية:

1. أن تكون لفظة مؤلفة من مقطعين صوتيين متميزين بعضهما عن بعض، لأن النطق الإنساني تميز عن النطق الحيواني بتقطيع السلسلة الصوتية إلى مقاطع متميزة.
2. أن تكون كلمة تفيد جملة ضمن سياق استخدامها.

3. أن تعبر عن بداية التفكير القائم على إدراك مشخص.
4. أن تؤدي أول وظيفة إبلاغية للغة الإنسانية، وهي - برأيك الباب - وظيفة الطلب (الأمر) حيث أن الطلب يعبر عن الرغبة في التعاون المشترك بين الناس.
- ولا تتحقق هذه الشروط جميعاً إلا في الصيغة العامة للطلب (الأمر) للمواجه (الشخص الثاني). لذا يقرر ذلك الباب أن الصيغة اللغوية الإنسانية الأولى كانت الصيغة العامة للطلب (الأمر) للشخص الثاني. وكانت لفظة ترتبط بمدلول وتؤدي غرضاً إبلاغياً، أي أنها كانت لفظة من نمط الكلمة - الجملة.

7 - مراحل نشأة الإنسان واللغة الإنسانية

يقضي المنهج التاريخي العلمي عند ذلك الباب بربط دراسة نشأة اللغة الطبيعية بنشأة الإنسان نفسه. واللغات الطبيعية² هي اللغات الإنسانية التي لم ي اخترعها إنسان معين ولم تنشأ بقرار وترتبط بحضارات الشعوب وتراثها كالعربية والصينية ...

وانطلاقاً من مبدأ تلازم النطق والتفكير ووظيفة الإبلاغ منذ بداية نشأة اللغة الإنسانية، يرى ذلك الباب أن إدراك العلاقة الذهنية بين الصوت وما يشير إليه كان البداية الأولى في تكون التفكير الإنساني. ويعني ذلك بالضرورة أن الكلام الإنساني قد مر في نشأته بطور أولي كان أصل المعجم اللغوي فيه عبارة عن محاكاة لأصوات الحيوان وظواهر الطبيعة، لأن هذه المحاكاة كانت بمثابة قرينة ساعدت الإنسان القديم في الإدراك الذهني للعلاقة بين الصوت وما يشير إليه. وعقبه طور ثان انعدمت فيه محاكاة أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة، وظهر فيه أصل جديد للمعجم اللغوي كانت العلاقة فيه بين الصوت والمدلول اعتبارية تقوم على التواضع الإنساني.

وباعتماد المنهج التاريخي العلمي يؤكد ذلك الباب أن نشأة اللغة الإنسانية لم تخضع لقوانين المنطق، بل كانت خاضعة لقانون صوتي يرتبط بقدرة الإنسان على التقطيع الصوتي وتطور قدرته على التقطيع. ولتوضيح ذلك نشير إلى أن ذلك الباب يميز مرحلتين في نشأة النظام اللغوي (الصوتي والصرفي والنحوي): الأولى - مرحلة ما قبل اكتمال النظام اللغوي بمستوياته المتدرجة، وهي في الوقت نفسه مرحلة ما قبل اكتمال التفكير المجرد (المنطقي)؛ والثانية - مرحلة اكتمال النظام اللغوي، وهي في الوقت نفسه مرحلة اكتمال التفكير المجرد وبداية عمل قوانين المنطق. وهكذا يظهر أن المنهج التاريخي العلمي يبين كيف اكتمل النظام اللغوي بربطه

² تختلف اللغات الطبيعية عن اللغات غير الطبيعية التي وضعها الإنسان مثل لغة الأسيرانتوالتي اخترعها شخص معين، وتختلف عن لغات البرمجة التي صممت لأغراض معينة في الحاسبات الآلية.

بتطور قدرات الإنسان على التقطيع الصوتي وقدرته على الانتقال من التفكير المشخص إلى التفكير المجرد.

يؤكد دك الباب أن القانون الأساس في جميع اللغات الطبيعية هو مبدأ تقطيع السلسلة الصوتية إلى مقاطع صوتية يتألف منها الكلام الإنساني. ويشير إلى أن الدراسات الأنثروبولوجية قد أثبتت بشكل قاطع أن حنجرة الإنسان القديم الذي انقرض ما كانت تسمح له إلا بنطق أصوات مندمجة بعضها ببعض، مثله في ذلك مثل سائر الحيوانات الناطقة. ويعني ذلك أن الإنسان القديم لم يكن قادراً على تقطيع الأصوات التي تتألف منها اللفظة التي حاكى فيها أصوات الحيوان إلى مقاطع صوتية متميزة. ثم تطورت البنية التشريحية للحنجرة عند الإنسان الحديث، فتمكن من تغيير نطق تلك اللفظة بتقطيعها إلى مقاطع صوتية متميزة. وبدأ ذلك مع ظهور الصيغة اللغوية الإنسانية الأولى وهي الصيغة العامة للطلب (الامر) للشخص الثاني التي نطقها الإنسان الحديث في مجموعتين صوتيتين متميزتين ومتصلتين في لفظة واحدة. فتميز حينئذ النطق الإنساني عند الإنسان الحديث عن النطق الحيواني. وظهرت عندئذ اللغة الإنسانية التي تقوم على تقطيع السلسلة الصوتية إلى مقاطع صوتية متميزة يتألف منها الكلام الإنساني. لذا يجب اعتماد المنطلق الصوتي أساساً في دراسة اللغات الطبيعية.

ويمكن تلخيص نشأة الإنسان واللغة الإنسانية حسب نظرية دك الباب كما يلي:

- الطور الأول: طور محاكاة الإنسان أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة. ومر بمرحلتين:
1. مرحلة الإنسان القديم، وهي مرحلة ما قبل الكلام الإنساني. ظهر فيها الأصل المعجمي الأول (التاريخي الحيواني) الذي لم يكن صيغة لغوية إنسانية، بل كان رصيذاً للأصوات والمدلولات المرتبطة بها.
 2. مرحلة بداية ظهور الإنسان الحديث القادر على التقطيع الصوتي، وهي مرحلة بداية الكلام الإنساني. وظهرت فيها الصيغة اللغوية الحقيقية الأولى للتخاطب الإنساني اللساني - صيغة الأمر العامة للشخص الثاني. كما ظهر فيها الأصل المعجمي الثاني (التاريخي الطبيعي - الحيواني) الذي لم يكن صيغة لغوية إنسانية، بل كان رصيذاً للأصوات والمدلولات المرتبطة بها.
- الطور الثاني: طور التواضع الإنساني. ابتدأ باكتمال انقراض الإنسان القديم، وانتهى باكتمال ظهور الإنسان الحديث. وظهر فيه أصل معجمي ثالث جديد تميز بأنه كان صيغة لغوية حقيقية هي صيغة الأمر العامة للشخص الثاني.

المراجع

مؤلفات الأستاذ دك الباب التالية:

- "الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني" - مطبعة الجليل - دمشق /1980/.
- "نظرية جديدة في دراسة بنية اللسان العربي" في كتاب (أشغال الملتقى الرابع للسانيات: اللسانيات العربية والإعلامية، تونس - نوفمبر /1987/) - إصدار الجامعة التونسية / مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة اللسانيات (7) - تونس /1989/.
- "نحو نظرة جديدة إلى فقه اللغة" - الأهالي - دمشق /1989/.
- "أسرار اللسان العربي" في مجلد واحد مع "الكتاب والقرآن - قراءة معاصرة" تأليف د. محمد شحرور - الأهالي - دمشق، ط1/1990/.
- "طريقة جديدة في دراسة تصريف الأفعال في العربية" - الأهالي - دمشق /1991/.
- "النظرية اللغوية العربية الحديثة" - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق /1996/.

=====